ابتسام حمد النيل الجاك



لم تكن الحرب خياري

لم تكن الحرب خياري

لم تكن الحرب خياري

ابتسام حمد النيل الجاك



الكتـــــاب : لم تكن الحرب خيارى

المـــؤلــف : ابتسام حمد النيل الجاك

رقم الإيداع: ١٩٧٦٠ / ٢٠١٠

تاريخ النشر : ٢٠١٠

ردمـــك : ٢٢٣-٤٥-٤٢-٩٩٩ الطبعة الأولى

الناشـــر : دار عـــزة للنشـــر والتـــوزيع

الإدارة : شارع الجامعة - الخرطوم - جنوب وزارة الصحة.

ت: ٨٣٧٨٧٢٠٠ فاكس : ٨٣٧٩٧٠٨٤ (١ - ٢٤٩+)

التـــوزيـــع :دار عزة للنشر والتوزيع ت : ٨٣٧٨٧٢٠١

السودان - الخرطوم . ص.ب : ١٢٩٠٩

بريد إلكترونى azzaph@yahoo.com

الإهــداء

أهدي تلك المحاولة المتواضعة إليهم أبطالها شمــاليون كانوا أم جنوبيون ... أهديها لروح الــشهداء الــذين عطرت دمائهم أرض الوطن ... أهديها لأهل الــشهداء وهم يخفون أحزانهم حتى تستمر الحياة ... أهديها لكــل من رفض الحرب حتى في صمته ... أهديها لكل من عمل للسلم حتى في بيته ... واهديها إخلاصا لمن أقسم باســم الوطن وناضل ليبر قسمه.

المؤلفة،،،

المقدمة

الحرب بين شمال السودان وجنوبه تعتبر سبب ضياع الكثير من المكاسب وتفويت ما بقي من فرص .... لم يفلت بيت أو عائلة من إشعاع نيران حزنها ...لم تغفل دموع الألم والحسرة عن عين أي منا شمالي أو جنوبي إلا وسكنت فيها .... هذا غيـــر طبيعـــة الحروب الانتقائية التي تطارد الأصفياء منا ليقدموا لها أرواحهـــم زهيدة ..... تجعلهم يفضلونها عن أهليهم وما يعشقون ....

***

لقد أفقدتنا تلك الحرب سودانيون شماليون أو جنوبيـــون .... حياتهم كانت مصدر حياة آخرون .... فارقوهم فحرموا من متعة الحياة ومتعة أن الآخرين يعيشونها ... أبناء أم أزواج أم آباء.

***

كم من آدميين بشر .... دفعت بهم الأقدار دفعا إلى أمـــاكن الحروب .... أفنوا حياتهم وجعلوا حياة ذويهم مرة لا تطـــاق .... تركوا لنا تاريخا لم نكن نحتاج إليه لولا الحرب.

وبقى في الخاطر حسرة لكل من لم يهبه الله شرف الاستشهاد ... تؤلمه ذاكرته حينما كان بدوى الرصاص ... فلم يبق في تلك الذاكرة مساحات لذكريات حلوة ولكن فيه إيمانا بالقضاء والقدر.

***

ها قد كفنا الله شر تلك الحــرب ..... حتـــى وإن أوســعتنا شرورها ....فكل من دخل الحرب كان أو ما زال فـــي خـــاطره اعتذارا لكل من عشقهم حتى وإن كانوا أعدائه .... اعتـــذارا بـــه يدرك أن الحرب كانت قدرا ولم تكن خيار.

***

الجزء الأول
قصتي مع الطباشير

عندما كنت في السادسة من عمري اجتاحتني رغباته في أن أسرق الطباشير من خالي لأنحت عليه بصمات حمائم بيـضاء .. كان اللون الأبيض في (الطباشير) مساعداً لكن حجمه أبخل علـيَّ أن أقول جملتي كاملة ..

***

هددني خالي من اهتمامي المزعج بالطباشير ثم شرح ليَّ بأن استخدام الطباشير فقط للتعليم وأنا إذا سرقته أهدر(أبدد) روح العلم التي يختطها الطباشير ... وأنه يمكنني اسـتخدام الطـين بـديلاً (للطباشير) كنت أعاند جامحاً لأنني أسمع هـديل الحمـائم وأنـا أغوص بمبردي في كبد الطباشير.

***

دخلت المدرسة وأنا في عامي السابع وازدادت رغبتي فـي سرقة الطباشير.. وأصبح همي أثناء الدراسة كيـف يمكننـي أن أحضن أصابع طباشير بين صفحات دفتري الممزق!؟.

***

لم أفلح في دراستي لأنني كنت أرتعش من كل ذرة (طباشير) تقع أرضاً بعد احتكاكها بالسبورة وكنت أحس حينها بأن الحمـــائم تتمزق وأن (الريش) يتطاير وأكاد أسمع صوت صراخ الحمـــائم تحت أقدام أساتذتي .

***

ازدادت معاناتي من الإحساس المتواتر تجاه حمـــائمي وزاد معها كرهي للدراسة التي تمزق أجناح (الطباشير) ومنذ ذلك الحين دخل اللون الأبيض حياتي فأحســسني بأشــباح الــسواد ســابقة المجاهل.

***

وحاجتي لنحت الحمائم أصبحت أكبر من حاجتي لارتــشاف جرعة علم .. فعشقي لها مرتبط بأذيـــال انحـــدارات مناقيرهـــا.. وملتف حول حدقات احمرار عيونها، يقصر بمدى ارتفاع جسدها عن الأرض ولكنه يطول بقدر المسافات التي تقطعها مـــن أجـــل الرسالة والحس المتمدد ود واشتياق .. أنا عشقت الحمائم وعشقت (الطباشير) ولكنني كرهت العلم لأنه أفقدني محبوباتي .. وأوهمت نفسي بمحاربة العلم .

***

وبقيت في فصلي الأول عامين وفي الثاني ثلاثة أعوام ولم أستطع وصول العام الثالث دارساً إذ بلغ عمري حينها الثانية عشرة وأيقنت بأنني لن أتعلم إلا حين انسج حمائمي. لتعلمني هي بعد أن أغزلها بأناملي التي عشقتها كفكرة وآمنت بها قبل مخاطها.

***

الجزء الثاني
عندما مات أبي

بلغ عمري الثالثة عشر وقد تعلق على جبيني لافتات للتمرد والعشوائية فقد ولدت مدللاً واعتــدت أن أردد .. أننـــي حُــر .. وسأفعل ما أراه .. هذا شأني كنت اكسر كل جسور التفاهم لأقطع وصول الرأي الآخر إليّ .

***

ولأني وحيد أمي وأبي بعد خمسة بنات وأنا أصغرهن ، شفع ليً ذلك بأن أعيش كيف أهوى وأن أهوى العيش بطريقتي الخاصة .. دللني أبي حد طفح الكيل لكن أمي كانت تحشو لــي تهديــداتها ووعودها بهدمي عند أول فرصة لها وأنها ستبنيني متيناً أفتح بابي على مسؤولياتي تجاه أخواتي .

***

كانت تهددني هامسة لأن أبي يفرض عليهــا ذلــك وكانـــت أحياناً تأكل طرف ثوبها غيظاً .. أخواتي أكبر مني وأنجــح فـــي دراستهن أيضاً .. أنا أحس بتميزهن عني يكاد يغرقني لكنني أتعلق (بالقش) الذي يتدلى من ابتسامات أبي الفخرية والتقليدية جداً فأطفأ بالكاد ...

***

أمي ضاقت بسيطرة أبي على تطبعي ولكن الله فرجها وأنـــا في منتصف عامي الثالث عشر عندما مات أبي .. لقد أصبحت لها القيادة بعد وفاة أبي رحمه الله.. قيادة سفينة مخروقة في بحر عاتي الموج لا ساحل له ..

***

كان أبي يعمل جزاراً في دكان يستأجره من العم أشول بربع جنيه العم (أشول) في عمر أبي تماماً وصديقه القريب جداً إليه.. ولــد العم (أشول) بمدينة ملكال ولكنه رحل كوالدي إلى مدينة الرنــك بحثاً عن رزقه عشنا أسرة أشول وأسرتنا وأسرة (كــور) أشــبه بأسرة واحدة ..

***

كانت منازلنا أشبه بالقطاطي تسمى كرانك .. كان "كرنكنــا" متدلي الأطراف قصير حاني لا تدخله إلا إذا أمــسكت بــالأرض خشوعاً .. القش الدافئ يستكين بالرقم من زلزلات الأمطــار بـــه ويبدو من الداخل كجنة .. أنا كنت أنحت عليه الكثير من الحمــائم وألبسها من ستائر (الدانتيل)الأبيض وأصنع لها منقاراً مبتسماً من أطراف الطرور الإسفنجي .. كنت أفعل كل ذلك في وجود أبــي لكنه ذهب وتركني أتلقى مُيعادات أمي وتهديداتها.

***

الجزء الثالث

فاشل في كار أبي أيضاً

ألزمتني أمي كأول بند في إصلاحاتها بأن أفتح جزارة أبي حتى أشد حبل المسئولية المنوط بيَّ .. قلت تحدياتي السابقة لأن شمس إمدادي أفلت أصبحت مرناً بقدر يزداد يوم بعد يوم .. كان قرار أمي صعباً عليّ لأنني لم أعتاد تولي أي أمر من قبل ، لكن ما واجهني كان صعباً .

***

لقد اكتشفت أنني أخاف من لون الدم مجرد لون الدم.. لون الدم يخيف كيف تكون إذن لحظات الذبح ولحظة انفصال الروح عن الجسد وتبعثر الأعضاء ؟؟؟ كيف ؟؟ .

***

إن مجرد الدم يتهيأ إلى وكأنه وحش عاري المناكب حاد الأنياب ... لكنه كان لأمي محاولاتها حتى تجعلني أرواد ذاك الوحش لأصنع منه مصدر عيش لي ولأسرتي فطلبت أمي من أشول أن يساعدني

***

عمري لا يتجاوز الخامسة عشر عام فطلبت أمي من أشول أن يذبح ويقطع اللحم ويرسله لي جاهزاً إلى الجزارة .. كان عليَّ فقط البيع ... كان حلا ولكنه غير مقبول إلى ... فإذا كان خـــوفي جله في لون الدم ، أي نوع من الفزع حينما أرى قطع اللحم وهى ترتجف على ترابيزة الجزارة تناضل بما تبقى فيها من روح.

***

حاولت جاهداً أن أقنع نفسي بكامل المسئوليات المتربعة على عاتقي .. أنا ابن الأسرة الوحيد وأمي ظلت في المدينة التي ولدنا فيها جميعاً أنا وأخواتي ورفضت الرجوع إلى بلدها الأصـــلي .. طاوعها خالي ووقف بجانبها حتى يشتد عودي أنا.... ولكني أنهار أمام ضعفي كل يوم.

***

الجزارة هي مهنة أبي وأنا علي ارتيادها ولكن الــدم وقــف عقبة في طريقي .. أحس بأن الدم الذي يسيل أمامي هو دم كـــان حياة وروح ... أحس وكأنه دم أبي ولحم أبي أنني أبيع دمه ولحمه ليأكله أناس أيضاً.. كانت هذه فلسفتي وكنت أحــس بالارتجــاف بمجرد رؤية يدي العم أشول الملطخة بالدم.

***

كان المخرج الوحيد ليَّ هو أن يؤويني العــم أشــول مـــن عاصفة أمي فقد كان هنالك الطعم المغذي "ميري" الفارعة.. ابنــة

العم أشول الوحيدة يتيمة الأم .. ميري أكبر مني بثلاثـــة أشـــهر ولكنها تبدو أكبر بعشرة سنوات أطول مني قامة وأقــوى عــوداً ماهرة في الأسر بعينيها والقتل بهم ..

***

أخيراً قبلت بكار أبى وما كان إلا بخطة إنقاذ العم أشول لي ... فقد حل محلي وأنا حللت محله في نسيج الطــرور .... كـــان عمله هو اصطياد سيقان الطرور من الماء ثم تجفيفه ثــم نــسجه وبيعه.. اللفة ناعمة تجمع كل لوح طرور مع آخر بـــالرقم مــن الثقوب التي تخترق عظمه .. أحببت هذا السياج أحببــت ميــري صيادي الماهر وأحببت العم أشول الذي آوانـــي مــن آلام الــدم وقربني قُرباناً من فاتنتي ميري.

***

الجزء الرابع
الطرد من الجنة

استمرت مسرحية الجزار الصغير عاماً كاملاً .. أمي تقبلني كل يوم وتدعو ليَّ لأنني ناجح في كار أبي .. العم أشـــول يقـــوم بواجبات الجزارة بأكمل وجه وأنا أقوم بواجبات عشقي مع فاتنتي ميري ...

***

كان جسمي نحيلا حتى علامات البلوغ لم تـــضئ ملامحـــي الرجولية ...ينقصني الرأي الشجاع أو السديد ... تنقصني الهيبـــة التي يمكن للآخرين رؤيتها حتى حينما أكون صامت ... وكـــأنني كما تقول أمي (لا شكلا مهاب ولا رأي صواب)... وعلى الـــرغم من ذلك ظلت ميري متعلقة بي دون أن ترى من العيوب ما رأته أمي .

***

وفي ذات مرة خرجت مع ميري كعادتي للبحـــر لاجتثـــاث الطرور .. ولكنني تعمدت التأخير لنصفا مع مزيج العشق المتهدل داخلنا .. لقد حدد العم أشول حركات ميري معي فقد كان حازماً، أما أمي لا تعلم بعلاقتي بميري لكنها توبخني كصغير مـــا زالـــت

تستعصي عليه المراهقة ...لم تحسسني يوم أنني الرجل المنتظـر في عائلة مهددة بسيادة النساء فيها ... وأنى الجسم والعقل النـادر النفيس داخل تلك العائلة .... على نقيض ميري التي أثارت كـل ثقتها بى وهي تغريني إليها دون طلب أو إلحاح .

***

مشوقتي ميري كانت كشجرة الكاكاو أو أشبه "ببانة" عارية، لها أصابع كمناقير الحمائم رقه، ولها أسنان نحتت كما أظنها مـن (الطباشير) مما حظي فمها بابتسامة خلابة، رائحتها كرائحة الطين المبلول وهذا ما أكد آدميتها.. لونها لا متمرحل ولا متدرج كلـون البُن متقن النضوج .. أنف صغيرة وشفتين ساحرتان كحبات عسل بأرجل نحلة بكر ..

***

كانت ميري فاتنة بالنسبة لي وكنت أراها تفـوق أخـواتي جمالاً .. كنت آتي مبكراً في الصباح لأقبل أظافرها .. ولاكتشف أدق الأشياء فيها ...كنت أحب حتى هوامش تفاصيلها .. وبالرغم من الحصار المحكم عليَّ وعليها لكننا كنا بعشق متجدد مـع كـل بسمة أو انثناءة تهديها ميري ليَّ في أول كل صباح.

***

كنت أعدها وتعدني بعشق معتق ونحن نتحدى اتحاد الغـدر وعنصريات الأهل والقبيلة .. لم يكن رحلينا إلى النيل فـي ذلـك

اليوم إلا لنرجع إلى أصلنا الماء والطين ونحن نتماسك انتمـــاء .. كانت حينها الأم البلل تعتصرني تحت زاويـــة قــرص الـــشمس المنكسرة وداعاً .. ميري أكثر رقة من نــسائم ضــفاف النيــل.. الوقت تأخر كثيراً والليل حاصرنا.. وفجأة سمعت صــراخ أمـــي والعم أشول لقد رأونا ونحن نحتضن بعضنا من غيــر أن تــدفعنا غرائز أو لذة، لقد عبَّرنا عن انتمائنا ودللنا عن حاجــة الإنــسان للإنسان.. ولكن العقاب كان كبيراً من العم أشــول لقــد وبخنـــي واعترف لأمي بفشلي في كار أبي.

***

الجزء الخامس
إذن أنت عسكري

بعد أن اتضحت حقائق تمردي وخيانتي لمسئولياتي أصرت أمي على دخولي العسكرية حتى أتعلم كيف التزم تجاه واجباتي .. كان عمري يقارب السابعة عشرة فقد استمرت قصتي مع ميـــري لأكثر من عامين لكنها انتهت وكأنها سويعات .. لقد اختفت ميري واختفى العم أشول لأنهم أحسوا بأنني سرقت منهم الأمان...ولكنني أيقنت بأن ميري لم تنساني أو ربما عادت إلى لتشعرني أنني مـــن يعطى الأمان لا من يسلبه ... فقط أخشى عليها مـــصيرا تتبنـــاه مرضاة لوالدها فهي المعهود عنها طاعتها عمياء لكل من تحبه عدا أنا فلا مفاضلة بيني وبين والدها .

***

ما فلح فيه والد ميري ربما فشلت فيه والدتي .. فقد وبختني كثيراً وكادت تطردني لأنني لم أحافظ على ميري كأخت ليَّ .. أنا حينها كنت أتألم لفراق ميري لا لظنون أمي وأبيها .. كنت أبحث عنهما في كل مكان وأنا قابع منكس رأسي بين ركبتـــي .. هنـــا اتضح لى جليا أنني لامتلك رأى ولا فكرة .. وأعجز كثيرا مـــن اتخاذ أو صنع موقف افجر من خلاله ثورتي علــــى نفـــسي قبـــل الآخرين.

***

أخواتي لا يستطعن إظهار حنانهن لي كالسابق ففي عهد أبي كنت أحس بفائض مشاعرهن ومخزونها ولكنهن الآن أكثر صمتاً تجاهي .. أختي الكبرى أجملهن وأكثرهن صمتاً وأنا أحبها أكثر من غيرها لكنها أيضاً لا تحسسني بأي عطف .. كنت لا أهتم لأمي ولا خالي ولا أخواتي لأنهن ضحايا الطريق أما ميري فهي ضحيتي وظلت حلمي .. كنت أبحث عنها لأخبرها بأن ما فعلناه لم يكن سوى اعتراف طبيعي بأننا نشكل إنساناً واحداً ... يحتاج للانسجام التام وأن التفرقة بيننا هي حسابات جغرافية وعرقية لا تؤثر على علاقتنا الإنسانية التي نستمدها من الدم والروح.

***

لم تعد ميري .... فقد انتظرتها طويلا وأخيرا تيقنت بأنها خضعت لأوامر والدها ... فهي كما الطيف لا يحركها بأمره فلم أذكر قط أنها غفلت عن طلب لي حتى وإن كان في خاطري ......لم تأتي ميري ، وظل أمر أمي ليَّ بزجي في العسكرية يطاردني ... أني أكره العسكرية .. أنا لم أنجح في مدرستي لأنه لدى إحساس بأن دم الطباشير يراق !!! إذن كيف أنجح في العسكرية ودم الإنسان وروحه هم الأساس!؟ .... قررت الهروب وكان أول هروب في حياتي.

***

الجزء السادس
هوايتي الأخرى

الهروب ، معنوي كان أو مادي هو أول ما فكر فيه لحسم مشاكلي ....تسربت ليلاً بعد ما سمعت كلمات قوية كالرصاص من نيران أمي المشتعلة عليَّ .. كنت كبيراً بل ورجل مكلف، لكن دلال أبي ولا مبالاتي جعلتني لن أعدو طفلاً في نظر أمي وخالي وأخواتي لذا كانوا يصنعون لي القرار كما يصنعون لـيَّ الطعام ولن أكذب أن قلت حتى عمر الثالث عشر كانت أخواتي يقمن باستحمامي وإلباسي ملابسي.

***

بدأ الصباح يشرق ... مسيرتي مازالت مستمرة قطعت حوالي ستين كيلو ... كل خطوة كأنها أول خطوة أخطوها فلا أرهق ولا ملل ... توغلت جنوباً مبتعداً عن المدينة وعن أسرتي وعن أطلال ميري .. اتجه الآن لواقع قد يكون أكثر مراراً ولكنني سأملى فيه قراراتي على نفسي بدلاً عن قرارات أمي المدعمة بتوقيع خالي ... قد يحسني ما سأفعله في هروبي بكثير من المسئولية والقدرة الذاتية لا المستمدة من أحد ولا المؤمن عليها..

***

قررت في تلك الرحلة أن أنفذ أول حلم لي بل وأول هواية هي أن أوصم على وجهي بوصم الدينكا أو النوير أو الشلك، لا

يهم بل ما يهمني أن أكتب فقط على جبيني دليل انتمائي لميـري وأن تظل تلك العلامات ما حييت .. رسى بي المسير في مكـان واسع وأخضر أتضح فيما بعد أنها مزارع الذرة والسمسم.. لقـد سمعت عنها من قبل ولم أتوقع مسيرة يوماً على قدمي ستوصلني لأن الناس يركبون "بوابيرهم" ليقطعوا المسافة فـي ذات الـزمن لكنني قطعتها راجلاً.

***

كنت أركب على ذكريات ميري ويسوقني حلم اللقـاء إليهـا ويدفعني من الخلف صوت أمي الحاد بالزجر والسباب .. دخلـت المشاريع غير منتبهاً لجاذبيتها لأن ما بي يكفـي لأن يـشل كـل حواسي .. دخلتها ولم أقصدها كمأوى لأن ذلك لم يكن هدفي مـن الهروب .. فالهروب عندي هو فقط ضـمانات ضـد العـسكرية والدماء ..

***

وجدت في المزارع عدد من الأنداد من أبناء الجنوب الـذين يسمون "بالجنقو" وهم عمال الزراعة فانخرطت معهم وكان أغلبهم من معارفي بل وأصدقائي .. كانت رغبتي في الشلوخ أو الوصم كأنها ازدهرت بوجودهم مع تضامنهم لذات الرغبة ..... ولأنهـم كانوا من قبائل متفرقة كان لكل منهم مقترح يخصه ولكـنهم فـي نهاية الأمر أوصدوني بعبارات مختلفة وظل على جبينـي وصـم تستطيع ميري قراءته.

الجزء السابع
خبايا جديدة

كانت أوجاع الوصد أو الشلوخ في وجهي أقل من أوجـــاع تذكري لدماء الذبح في حياة والدي وحتى في عهد العم أشول ... لقد اندهشت واعتبرت تحمل الألم الدماء إشارة لخبايا جديدة ..

تورمات وجهي أخفت ملامحي وعندما انزاح الألــم بــدأت أشبه أبناء الجنوب كثيراً لأن لون وملامح وجهــي أقــرب إلــى سحنتهم .. لم يأخذني الحنين لأمي ولا لأخواتي وانخرطــت فــي الجنقو أعمل بكل نشاط وسط حقول السمسم والذرة.

***

مر شهران وبضع أيام وما زلت جامداً .. كان أغلب زملائي من الجنقو هم أصدقائي ومعارفي وزملائي منذ الماضي واغلــبهم فاشلين في دراستهم مثلي، كانوا يذهبون إلى المدينة كــل أســبوع ويعدون بأخبار عن أسرتي تبدو لي باهتة وغير مفيدة... فقد كانت تلك الفترة لحظة صفاء أعيد فيها هيكلة بناء ذاتــي ... حاولــت تناسى أسرتى فنجحت ولكنني فشلت في نــسيان حتــى لحظــات صمت ميري.

***

نقل إلى أقرب أصدقائي خبر احتمال زواج ابـن الجيـران "جيمس كور" من أختي الكبرى أجمل أخواتي .. كان الخبر أشـبه بالقديم لأنني سمعت في حياة أبي قبل ثلاثة سنوات أن جميس كور الأستاذ المتفوق إن عاد من هجرته الدراسية سيزوجه أبي أختي .. حينها كانت تلك فتيلة خلاف بين أمي وأبي فجميس جنوبي رطان وأختي شمالية فصيحة وفروقات أخرى أكثر هامشية.

***

أنا كنت متحمساً لعهد أبي مع جيمس كور .... فـأبي كـان معهودا عنه المواقف البطولية .... مشهورا بثباته في العهـود ... ميالا للإيفاء بالالتزام حتى وإن كلفه ذلك أثمن ما يملك ... ولكنه رحل تاركا وعده لجيمس كور على مهب الريح... على الرغم من أن أختي كانت تكن لجميس شيء من الود .

***

الجزء الثامن
الحرب هي الفيصل

انتظرت أسبوعاً آخر لتنقل لي أخبار جديدة وكانت شهيتي قد فتحت لسماع أخبار أهلي ...ومن ضمن محاولاتي لتقويم ذاتي قررت مراجعة علاقتي بأهلي ....ما ذنب أمي أن كنت ابنها والوحيد وسط خمسة بنات ... وما ذنبي أنا أيضا ....هل وجودي معهم يعنى لهم شيء ... هل إن لم تنجب أمي ولدا قط سيختلف الموقف ...

***

كل الأمور أصبحت قابلة للتعديل والتفكير فيها عدا دخولي العسكرية ... لقد بدأت أطلب من زملائي في الحقل التجسس على أسرتي ليعرفوا شيء عن رغبة أمي بزجي في العسكرية .... ولكن القضية التي شغلتهم هي قضية جيمس كور ... فأبلغوني أن أمي وخالي رفضوا جميس كور رغم قبول أختي ورغم إصرارها ولكن جميس كعادته كان قادراً على تحقيق ما يريد هذا ما جعلني مطمئناً.

***

مكثت ما يقارب ثلاثة أشهر وسط الحقول أكتب أحياناً بيت شعر على الطين المبلول متهيئاً جسد ميري .. وأنحت من الطين

المتعلق بأصابعي كفين وأصابع رقيقة أقبلهم بدفء حتى تجف شفتاي من دعك الطين .. لا أذكر أحداً غير ميري ، لكن جلوسي هذا لم يظل طويلاً.

***

لم تكن هنالك أي علامات لنشوب حرب ... فالناس في الحقول يبذرون بذور ستحصد فيما يقارب عام ....فالمزارع وأهلها يشعروني بأنه لا حاجة للعسكرية .... ولكن واقع الحرب علا على واقع السلم خاصة في تلك الأراضي الخضراء .... لقد دخل الجيش المزارع ودكوها دكاً ...فكانوا كلما دخلوا منطقة فر أهلها لأخرى ... وبدأت الأنباء تتوافد إلينا مصطحبة رائحة البارود وصوت طلقات الرصاص دليلا ...

***

وحينها كان الكل فزعا من تلك الأنباء ... غير قادر على الحراك فجذوع الزرع لا يمكن خلعها ولا انتظارها ....كل الخيارات كانت مريرة فالحصاد أوشك ...وكلما تفتقت سنبلة تجمد ندها محروقة الحشاء لا محال .... كنت أجوب المزارع وزحف طلقات الرصاص يتمدد جشعا .... الناس يتناقلون في هلع أخبار الدمار والتشريد .

***

قررنا جميعنا من في الحقول أن نهجر المزارع بحثا عن فج آمن ..... وظل بعضهم يستعرض لنا خيارات أماكن مستحيلة .... حينها صحت : علينا أن نرجع للمدينة .... صمتوا عن الموافقـــة لأن ردهم كان قاسى .....لقد دخل الجيش مدينة الرنك .. في تلك الأثناء تفجرت داخلي كتلة من المشاعر وصرخت بأعلى صـــوتي أمي .. أخواتي .. أمي ... أمي.

***

الجزء التاسع
الثأر والأم جديدة

لم أشعر بأنني أحرك طرفا من جسدي ...فقط أدركت وبعد مسيرة ثلاثة أيام أنى قد دخلت مدينة الرنك .. وجدت المدينة هادئة تماماً وقد أخلوها من كل المواطنين ...هرولت إلى منذلى وتهيئ إلى أنى في المكان الخطأ ... لقد تحولت الكرانك لرماد .... لم يبق سوى الشناكل الحديدية التي كان أبي والعم أشول يعلقون عليها جسد الخروف ...لقد سحقوا بيتنا وبيت العم أشول بل وحتى بيت جيمس كور .

***

كنت أصرخ ثائرا .... أين أمي!؟ .. أين أخواتي .. لقد جرفتني أمواج الحنين لأمي.... منذ أن ولدتني لأول مرة أحس بحاجتي لها.. أحسست لأول مرة أنني أحب أمي واحتاج لحضنها الذي لم اذكر أطلاقاً أنها آوتني فيه... كنت اصرخ مناديا عليها تستجيب لى ولو بصوت توبيخ ولوم .... كنت اصرخ ولكن لا أحد يستجيب .

عرفت بعدها أن أمي وأخواتي الأربعة استشهدوا أو ماتوا... وأختي الكبرى وخالي مفقودين .. المدينة خالية تماماً ماعدا أنا ..

أنا الناجي الوحيد في الحقول وفي المدينة لقد سبقني المـوت فـي المدينة واتى خلفي في الحقول .. مات كل العمال حرقاً وماتت كل الزراعة لم يبق بالحقول لا جنوبي ولا شمالي ولا حتـى جـذور زرعاً.

***

أول قرار اتخذته كان هو دخول العسكرية .. قـرار أمـي سأنفذه دون معصية .. يمكنني الآن أن أشرب دم إنـسان لأثـأر لأمي وأخواتي .... أمي التي غفلت عن ساعة أستمتع فيها بكونها أمي ... وما زلت متعطش لرؤيتها .. لن أنسج حمائم بعد اليـوم وسأعشق البارود وصوت انفجار الألغام فمقتل أسرتي بكاملها أمر لا يمكنني أن أتجاوزه دون انعطاف لمـسيرتي بـل وانعكاسـات لأوجه حياتي .

***

فبتلقيني خبر قتل أسرتي أحسست بأني أتغير ابتداءً من دقات قلبي وحتى السائل اللامع في عيني .. لم أنظر إلى روحي داخـل مرآة ولكنني أحسست بملئ كفي أنني تحولت لشخص آخر حتـى أنني كبرت في دقائق معدودة بعمر يتجاوز العشر سنوات.

***

الجزء العاشر

وفي مصنع العسكرية !..

كنت مؤهل معنوياً لأن أصبح بركان من البارود ولـــم يعــد هنالك ما يهمني .. خيل إلى أني أنفذ رغبة أمي ، التي لن تـــصل إليها طاعتي المتأخرة .. فهدف أمي كان من قبل عـــصاة كفـــري .... ولم يقاطع حتى هامش إيماني .. لكن الآن أقصده كبلسم لأقلل به عذاب ضميري ..

***

لم يكن صعبا أن ادخل أي معسكر .... فقد حولت المدارس والمستشفيات إلى مراكز تدريب للعسكرية .... الكـــل تنـــازل أو غصب حقه في التعليم والصحة ... أو الأحرى لم يعـــد محتاجـــا للتعليم . فهل مقابل حملك بندقية يجـــب عليـــك إبـــراز شـــهادات علمية!؟ .

أما ما يخص المستشفيات فلا أحـــد يـــصل بـــه الاســـتقرار والاطمئنان لاكتشاف آلامه ....فالكل كان مجردا مما يحسه بالآلام أو الأمراض .

***

دخلت العسكرية وإلحاح أمي لا يفارق ذهني .... كانت تلح على بالعسكرية لتقويني وتبنى عودي .... ها قد دخلتها ...ستفعل العسكرية بى ما كانت تحلم به أمي .... ستفعل العسكرية بي ما يجعلني أمتلك وأنفذ أصعب القرارات وأمرها ....فستكون كما قالت أمي ، مصنع يبنى في ويهدم ما لم تستطع أمي هدمه وبنيانه.

***

بدأت الأيام الأولى في المعسكر والجميع ينفر من الجميع .... كنت أحس أن الكل مكره لتواجده في هذا المكان .... تفضح الأرض أنينهم وآهاتهم ، وهم يضربون بأرجلهم لتأدية التحية العسكرية متظاهرين بالصمود ..... ينكبون على التمارين كما تنكب البهائم لتشرب من مياه راكدة متعكرة .....لا أحد يوانس احد ...لا أحد يسر لآخر بمخاوفه ... بل كلا يتحمل مسؤليته تجاه المرير من القرارات.

مرت أيام عديدة وأنا داخل المعسكر ... كنت لا أكلم احد ولا أحد يعرفني ....كنت أجتهد لأصبح أميز الثائرين هنا ....لأنني أعتبر أن مبرري للثورة كان أقوى المبررات .... أصبحت ماهراً في دروسي على غير العادة وأكثر ميولاً للصمت أرمي ببراعة وأخاطب ببلاغة وأؤدي صلواتي بخشوع .. كنت أميز جندي، ما لفت نظر مدربيّ وقادتي بل وحصدت كثيراً من الجوائز للمسابقات والنشاطات داخل المعسكر ..

***

كانت صورة أمي تطاردني وأيضاً مصير أختي الكبرى ... فقد أصبحت مسئولاً عنهم حين لم أكن مسئول .. وأصبحت أفتقد أمي كثيراً وهذا يؤلمني حتى أني أعتصر حضني الذي جلبته ليلقي بعض الدفء في ثوبها... ولكن لشؤمي لم أرغب في ذلك إلا في اللحظات التي احتضنت فيها الرصاص وأفرقت حينها دماء قلبها الذي غنى لي بالحنين عندما كنت اعتزل السمع ..

***

فأنا احتجت لأمي عندما باتت لا تحتاج إلى وقد حدث قبلها العكس فهربت لأزرع في أرض غير أرضها .. زرعاً انتهى بنهاية حياتها ... ولكنني أن زرعت حناناً داخلها ليَّ ووليتها شئ من الطاعة لفارقتني وأنا أمير الزُراع ....ما كانت تحتاج مني سوى أن أمثل صورة أبى أخلاقا لا مهنة ... كل ما كانت ترجوه مني أن أشعرها بأن ابنها قادر على أن يعطيها أمانا دون أن يدخل العسكرية أو يعانق بندقية .

***

اشتدت حساباتي وعقوباتي على نفسي حتى أصبحت أدمن صوت طلقات النار وأشرب من الدم المسكوب من خراف المعسكر .. أشتم رائحة الدم شهيقاً وأحرص على أن لا أزفر حتى لا يرتد منه جزء .. كنت أنتقم من الطفل الذي عشق الطباشير وروح الحمائم لأنه هو المسئول عن ضياع أسرة بكاملها وأعزز بالأحرى موقف الفدائي المنتقم.

الجزء الحادي عشر
إرادة الأقدار

أصبحت في وقت قياسي عسكرياً يشار إليه بالقيـادة فكنـت خطيباً أبني المعنويات صروحاً .. أقف وسط النسور كما الزغـب أثناء خطاباتي ... لم يعد داخل المعسكر أحدا ضـعيف.... لقـد استرجلوا وتفتقدت عضلاتهم ....فقد دخلت المعسكر وأنا أضعفهم بنية وأوهنهم رجولة ... كنت أسوأهم رأى وأضحلهم فكـرة ..... ولكن سحر العسكرية أو كما تقول أمي مصنعها حولني لـشخص مختلف.

***

كانت قيادتي توكل إلى إلقاء الخطب .... تقلدت تلك المهمة لان أفكاري ثورية وعباراتي غضبة ....كنت حينها أحس بـأني أقود إحساس ورؤية وسمع من حولي بخيط متين .. الكل مـشدود ودون حراك أتحدث عن الوطن وحرماته ولكننـي أبـدع حينمـا أتحدث عن أمهات وأخوات الجنود وهن أولى بالحمايـة .. كـان مصدر إلهامي هو نقطة ضعف الآخرين وفتيلة نيران عمري ..

***

لقد أصبحت اجتماعيا بقدر ملاحظ بل وأصبحت نشيطا فـي كل المجالات ... كنت أخاطب وأحادث وأقرأ القرآن والـشعر .. وحين أبتسم أحس بأن الجرح في قلبي ينفتح قدر مط شفايفي عند

البسمة ويضخ نزيفاً باندفاع صوت ضحكاتي....حقا هنا لحظـــات حلوة ولكنها مرة بقدر الاستمتاع بها ...فالكل يرغب استشهاده في الوقت القريب ....وهو يقبض على ميزان الحياة المعتل الــذي لا يأبه لحكمة (اعمل لدنيتك كأنك تعيش أبدا) ..... ولا يتحسر حين يتعاظم إيمانه بحقيقة (اعمل لآخرتك كأنك تموت غدا) ... وهـــو بذلك يأخذ من ثوابت الأمور ما يجعل بقاءه في الحرب مبررا .

***

سألت نفسي هل ما يعيشه أنا ويعيشه زملائي داخل المعسكر حياة أم موت .... فالوقت الذي أحس فيه بالهدوء والعافية هو وقت دوي الرصاص ومعمعة المعارك .....لقد حزم الجميع أمتعته في انتظار أمر التحرك ....كلهم كانوا متلهفـــين لــوطيس المعـــارك ....ولكنى أقرأ وبوضوح وراء تلك اللهفة رغبـــة فـــي التراجـــع والفرار ولكن لا أحد سيتراجع .

***

الجزء الثاني عشر
لا حياة مع الحرب

ظللنا بضعت أيام في وضع الاستعداد .... كنت أقيم تمارين فردية لأحافظ على لياقتي العسكرية ....كنت أتجول لـــيلا داخـــل المعسكر ويأخذ انتباهي السكون !!.... الكل صـــامت صـــمتا لا يختلف كونه صمتا من اجل الرضاء أم من اجل الاستـــسلام .... كنت أحيانا أسمع تنهيد بكاء ولكن الظلام يحرمنـــي مـــن رؤيـــة الدموع واحمرار العيون .... أنا أن كنت مـــثلهم لبكيـــت ولكـــن الحرب آتيها وماضيها لم تترك لي حياة فمن أين تأتيني الدموع !!

***

في ذات يوم كان صبحه عاتما لم ينفك عـــن ليلـــه قـــدرنا المعسكر ....منذ طفولتي اعتدت أن استمتع بالرحلة وأنا أنظر لكل زرارات الرمل وحبيبات الحصى المتطايرة من إطارات اللـــوري ... حقا انه لوري ولكنني لم أفكر في شيء مـــن تفاصـــيل هـــذه الرحلة ... فقط كان يشغلني ويشغل زملائي ما لم يكن مرئي لدينا ... كنا نسير جماعات ضخمة ... أعداد من اللوري لا تحـــصى بالعين ... وبشر حشروا كأنهم جماعات نمل ...ترى كم محارب!! ... مقابل كم محارب ؟؟...وكم أم وأخت وزوجة مصيرها كـــأمي

وأخواتي .... كل تلك حساباتي وحسابات زملائي ولكننا سندخل الحرب .... لا بديل للحرب سوى الحرب.

***

دخلت الحرب وكنت بارعاً في رمي الرصاص حتى سميت بالناجي الساحر.. كنت إذا دخلت لأي معركة أكون العائد ضمن العشرات من المئات .. فالمعارك كانت طاحنة والكفة أشبه بالمعتلة .... الكل قوى ولكن لا أحد يستسلم فالطرفين يقاتلون حتى آخر فرد فيهم ..... أهو عشقا للحرب أم كره للحياة ....أو ليست وراء أحدكم هدفا يحيى من أجله !؟ .....هل ما يدفعنا للانتحار باسم الشهادة رغبة حقيقة .... أم هنالك آخرون كما القدر يدفعون بنا لنبقى في أرض المعركة منتصرين كنا أو مهزومين.

***

كنت من أول معركة قد أشبعت رقبتي في الدماء والبارود .... ولكن كان على أن أبقى لأتبنى قضية تقدمت لها طوعا أو لأسباب شخصية ... لقد لمت نفسي لأن أهدافي للحرب لم تكن وطنية ...فلن يجدي تحويلي لأهدافي الآن ... لكنني سأظل أحارب طالما حاولت تحقيق هدف خاص بطريقة جماعية.

***

الجزء الثالث عشر
السياسة والفكر

مرت على ارتداء بزتي العسكرية و"بوتي" خمسة عشر عاماً دخلت فيها تسعة معارك كبيرة وثلاثة وعشرين مواجهة أخرى أصغر كل من عرفته وصادفته أصبح شهيداً .. قد رغبت في الشهادة لا لحورها أو مسكها بل خلاصاً من ذاتي المدمنة للحروب.. ولكنني أحس بأن ربي يعاقبني بأن لا أنال حتى ثواب الجروح .. فأنا في كل حروبي تلك لم أفقد سبيبة من لحيتي الكثيفة .. بل وأصبحت أكثر طولاً عظماً ولحماً..

***

زاد سخطي من عودتي وأنا حي .... قررت أن أقف في النواحي التي لا تعطيني الأمان أو تمنع عني الإصابة .... أصبحت أقف في خط مدفع العدو ليريحني .. كنت أثناء المعركة أغادر مكاني باتجاه وابل الرصاص أتفاجأ بهطيلها بعد مغادرتي لمكاني في كسر من الثانية ....كانت تلك الحياة مؤلمة بالنسبة لي ...فان لم لكن أخشى اعتيادي من جديد على الهروب لطلبت من أحد زملائي إفراغ بندقيته في صدري .

***

صدق من سمى الحرب حرب ... يموت كل من حولي مـــن أصدقاء وأعداء وأحس بشعور واحد .. هؤلاء يأســـرون هـــؤلاء ويتساوى أمري.... كم كرهت التقرب من أي احد مـــن زملائـــي لأنني ما أن استرحت له فارقني وأمام عيني .... ما أن بدا لي أو أبديت له شعور مريح أوقفتني هواجسي بأن الفراق أتى.

***

كانت لدى اهتمامات مختلفة .... ولكنى لم اهتم قط بالحرب ... لم أذكر أنني بحثت أو وقفت عند خبر سياسي ، أن كان هـــذا في جريدة أو إذاعة .... لن أقول تليفزيون لأن مـــدينتي تـــستمتع بهدوء الظلام ....ولكنني أذكر اهتمام أبى والعـــم أشـــول بتلـــك النواحي .... لقد كانوا يجلسون كل أمسية أمام منزل العم أشـــول ويناقشون مواضيع تخص الحكم والحاكم .... كنت لا أكترث لمـــا يقولونه لأنهم غير ثابتين في الثناء أو الانتقادات السياسية .

***

لم آخذ من تلك الجلسات سوى إيماني بأن الـــسياسة حـــرب .... الخاسر فيها ينتظر فرصته لينتصر ... والمنتصر فيها يأمل بانتصار آخر متناسي أن انتصاراته تعنى هزيمة وخسران الطرف الآخر، .... وأن السياسة الناجحة لديهم هي حسم العدو والنجـــاح هو نجاح في القتل والتشريد ...وأن السياسي القائد من يقود الناس للحرب لا من يرجعهم عنها .

***

الجزء الرابع عشر
حين لا أحد يقرأ

كنا في المعسكر كأننا في دنيا خاصة ..... فـإن لـم تكـن الأناشيد الوطنية والحماسية ما تحدث أحد .... وكان الناس جميعا نسوا حلو الأحاديث أو السمر .... نستمع أحيانا للراديو فنعرف ما لا يفرحنا ولا يسرنا من البطولات .... كنت وكأنني ارفع الستار عن الجميع فيضح جلي ما يخفوه عنى وعن بعضهم .... لقد كتموا عن ذاتهم كره الحرب حتى امتلأت مساحات الكتمان لـديهم فبـدأ الأمر يتسرب .... وما كان باستطاعتي أن أكتم مشاعري فقررت أن أتنفس.

***

قررت أن أكتب في مذكرات صغيرة حديث موجز عن مـا يدور بفكري حقيقة وخيال .. فأنا بالرغم من عدم إحساسي بالفرح أو الحزن يمكنني أن أفكر وأحلل كل ما يدور حولي .. وكل مـا شغل بالي حينها سر صمود الجميع وإصرارهم على الاستمرار في الحرب ....لقد طالت المدة ... شهورا وأعوام والحرب هنا وهناك مستمرة .... لقد تملكني غرور أن أصبح المنقذ الـذي عليـه أن يوقف الحرب.

***

كنت أسخر من نفسي حينما يهيئ إلى أنى بإمكـــاني إيقـــاف الحرب ... حينها كانت تتهال على ذاكرتي تفكيري السالب وأنـــا احتمى بميرى وأسرتها ... عجزي وأنا أتسلل مغادرا حضن أمي وإخوتي ...كنت أسخر من نفسي كيف أوقفها وأنا لم أشعر بالراحة إلا أثناء دوى الرصاص ....كيف أوقفها وأنا عاجز عن مغـــادرة الدارة الآن.

***

سأكتب مذكراتي تلك .... سأنظر لوجه وعيـــون كـــل مـــن يحمل بندقية لاسترق ما لا يستطيع قوله وأكتبه فوق توقيعه ..... سأكتب كل ما يقوله نبض قلبه وهزات يديه وفوه البندقية يصارعه ....سأكتب كل ما صمت عنه الشهداء حينما كانت رسالتهم مبتورة ....سأكتب ما جعل منى عاشق بارود لا عاشق حياة .

***

الجزء الخامس عشر
القائد المتفوق

ظلت محاولاتي للكتابة سرا .... كم كنت أحتاج لأن يبادلني أحد زملائي الفكرة ولكنني أخاف أن يقتلعه الموت منى ... وتظل عباراته ونظراته تلاحقني كما تفعل بى عبارات ونظـرات أمـي .....كنت حينما أعجب بأحد أهرول من أمامه هاربا وكأن القـدر يُشهدني على اصطفائه له ..... كـانوا يـدخلون المعـارك ولا يرجعون معي وكأنهم يعاقبونني ... ويظل تبريري أنـى دخلـت الحرب لأهدافي وحدي ...وسأرجع وحدي .

***

لم تضع الحرب أوزارها قط ......خمسة عشر عاماً وأنـا أتعزب، لم أطلب إجازة ولا راتباً ولم أقبض حافزاً قط .. كنـت أحارب من أجل ذاتي وحتى أن وضعت الحرب أوزارها سأحارب وحدي .... فكل أحد يستشهد أحس أنه على الثأر له بالرغم مـن كرهي للحرب ..... كنت أرفض أي أجر وأكل من صيد الأرانب والغزلان..

***

أتاني تكليف بأن أصبح قائد رسمي للجيوش في كل كتائب المنطقة ... كان مجرد إجراء لأني منذ ثالث تجربة حربية لي توليت قيادة المعارك ... وقد كان أحياناً برغبتي وأحياناً أخرى إلزاما لأني الناجي الوحيد ... فأقف أحمل مدفعي حتى تسكت مدافع الآخرين .. كنت أرجع المعسكر منتصراً وسالماً لكنني مكسوراً...مهزوما.

***

منذ أكثر من خمسة عشر عاماً لم أدخل مدينة وقد توالت دعوات الاحتفاء بى مررا ...لكنني رفضت متحدياً لأنني دخلت الحرب بأهدافي وأنا من يقرر إذا نجحت في تحقيق أهدافي أم لا .. فبالرغم من أنه تصادف أن تقاطع هدفي وهدف آخرين إلا أن تقييمهم لى سيختلف عن تقييمي لنفسي .

***

الجزء السادس عشر
اهدار التحدي

ظننت أنه بإمكاني أن أعيش تلك الحياة المرة كما أرغب .... فتحديت أوامر الذهاب للاحتفاء والتكريم ....كنت أظـــن أن تلـــك الأوامر كأوامر أمي ... يمكنني أن ألعب عليها مسرحية الجـــزار الصغير .... أو يمكنني أن أتركها وأرحل وراء أهوائي .... ولكن الدعوة أصبحت إلزامية فهي تسمى فقط دعوة ولكنها في الأصـــل تعليمات العسكرية ... فحينها على أن أتـــشرف بمقابلـــة رئـــيس الجمهورية ووزير الدفاع وكل من أدار خيوط الحرب وهو قابعـــا في كرسيه .

***

كانت لدى الرغبة في مقابلتهم لأتوســـل إلـــيهم أن يوقفـــوا الحرب كيفما كلف الأمر ...سأقص لهم إحساس كل جندي وهـــو يجرجر ساقية عائدا من أرض المعركة مهزوما كان أو منتـــصرا .... سأكشف لهم عن وجوه بريئة كرهت الحرب وهرولت فزعـــا ولكن طلقات الرصاص لحقت بها ....كانت محاولتي في إقنـــاعهم أصدق من محاولتي في الذهاب ... ولكن مـــوقفي وبقـــائي فـــي الحرب أحسسني بأن تلك المحاولات ستفشل وما أنـــا إلا نمـــوذج لثأرين ما زالوا في أول الطريق.

***

وأخيراً قابلت من هو مكلف بتبليغي لحضور الاحتفال .... تحدث إلى مُدعي أن الأمر متروك لي وأنه ينتظر قراري ....لقد حاول إقناعي بأمور هي في الأصل سبب بقائي في الحرب ... أبلغني أن حقوقي العسكرية تساوي رأس مال أكبر الشركات القابضة في السودان. وأنني يمكنني أن اعتزل الحرب لأنني مكثت فيها خمسة عشر عاماً كاملة الساعات والدقائق.... وعلى أن أستمتع بما تبقى من عمري أن كان باستطاعتي طبعا .

***

لم يكن شرحه سوى إغراء بأشياء غير قيمة لدي.. فالمال الذي يتحدث عنه كنت سأعطيه لأمي وأخواتي وميري ولكنني الآن أعطيهم ما رأوا بالأمس أنهم يحتاجونه .. وأن حقوقي هي رؤية بحاراً من الدماء حولي.

لقد تعلمت في تلك الفترة الإحساس بمخابئ الأمور لذا تأكدت من أن حديث هذا الرسول لم يكن سوى غشاوة مطمئنة بعدها ستتضح الرؤية...

***

كنت لا أرغب في مقابلة تلك الجهات لأنني لا استحق التكريم .... وحتى أكسب القليل من الوقت ادعيت بأني موافق على الرحيل ...ولكن بعد مناورة أود القيام بها لأمن المعسكر من الاتجاه الجنوبي الشرقي..... وأن واجبي كقائد يحتم علي التأكد من الأمان حول معسكري حتى تكليف قائد آخر ....كان الشخص

المرسل إلى قائد عسكري سابق لذا أحس بواهي حججي وواجهني بصرامة أن أوامره خيار من اثنين "إما أن أخذك أو أقتلك".

***

الجزء السابع عشر
ملامح صحوة

تحديت دعوة الرئيس وقررت الهرب ليلاً من المعسكر وحينها سألت نفسي "إذا كنت أتمنى الموت لماذا أهرب منه إذاً؟" "بل إني منذ فترة تتجاوز السبعة عشرة عاماً لم أقرر أن أهرب!؟".. هل أنا أعود الآن لأصبح يافعا تراوده فترة المراهقة؟....كثيراً من الأسئلة هطلت علي وأنا أتسلل خائفاً كالوليد.... ما أشبه الليلة بالبارحة ...ها قد هربت من جديد ، قطعت مسافة طويلة باتجاه أجهله... ترى أين ستوصلني خطواتي في أراضى كلها مزروعة بالألغام .

***

كان الليل جميلاً والقمر في أتمه النجوم أقرب كثيراً إلى الأرض .. الآن أنا أهرب وهذا ثالث هروب ليَّ .. كنت أمشي مسرعاً دون أن التفت خلفي .. فجأة اشتمت رائحة تشبه رائحة ميري .. اندهشت فأغلقت أنفي ووقفت أتلفت واهماً نفسي بأنها خلفي تماماً .. الرائحة تطاردني رغم قفل أنفي .. فجأة وبلمسة الرائحة صحت ذكريات ميري .. عينيها، فمها، ساقيها، وخصرها، حتى أنني تفقدت أصابع يدي شاخصاً ومتلمساً باحثاً عن عبق جسدها الخريفي.

***

لقد حملت نفسي ذنب اختفاء ميري واشتعال الحرب فلو أنني حافظت عليها لما هجر والدها مدينته من أجلـــي ودخـــل الغابـــة متمرداً كما أشيع .. كان الجو مواتياً للذكرى ، فالأشـــجار عاليـــة وداكنة الخضرة في النهار تكتفي الشمس بالاستواء على العالي من الأشجار وتتحجب عن أرض الغاب... وبالمساء يتسلل النجم لينزل تحت عرش الأشجار يسترق النظر لعاريها .. لا ضوء بالنهار ولا ظلام في الليل .....

***

الحرب هنا لو استمرت مدى الحياة لما ملها الجنود هـــذا أن كانوا يتذوقون سحر وجمال الطبيعة .... ولكـــن أن تـــأملوا ذات المحل لزرعوا الحناء وغنوا مـــع العـــصافير شـــمالي وجنـــوبي ورقصوا مثل فروع الأشجار مع طرب النسائم .. كنـــت أمـــشي لعشرة أيام وقد انتابتني شيء من الصحوة التي كانـــت بوادرهـــا لمسات ذكريات ميري .. ميري .. التي تشبه زهرة الصبار وأنـــا لها كشوك ساقها .. كنت أحبها لاحميها ولم أشأ إيذاءها فقط كانت ليَّ طريقتي....

***

تلك الغابات كانت ملاذ لكل متطلبـــات الحيـــاة ..... فيهـــا يمكنني التفكير والتدبر في مخلوقات الله .... فيها يمكنني أن آكل لحم طير مما يشتهون .... فيها يمكنني أن أشرب ماء الأنانـــاس

والبرتقال .... فيها يملأ الهدوء والطمأنينة جـوانحي .... وفيهـا سأكتب أقوى مبرراتي لوقف الحرب .

***

الجزء الثامن عشر
اكتمال اليقظة

مسيرتي في الغابة تجاوزت الشهر كنت آكل وأشـــرب بــل وأغني حتى قررت أن أبقى طول عمري على هذا الحال كيف لا أُغني والألحان الطيور تشدني وهي الألحان طبيعيـــة لا آلـــة ولا نوتة موسيقية .. أحسست بشيء من التحول في ذاتي بل وانتابتني فكرة أن أصنع حمائم خضراء من أوراق الشجر اليـــابس .. مـــا شجعني هو أن أوراق الشجر المتساقطة تجف وهي خـــضراء لا لأنها تحمى ذاتها من احتراق الشمس ... ولكن لإصرارها علـــى التمسك بمبادئ الحياة ... فلما لا أتعلم منها!؟ ..

***

بعودة رغبتي في نحت الحمائم عادت تـــرانيم العـــم أشـــول وضحكات ميري .. أكاد أن أتيقن أنهم هنا حتى أنني التفت ورائي هلعاً... فالمحارب قاسي القلب متبدد الإحـــساس يحـــشو بندقيتـــه ليفرقها فيحشوها .. كأنه يحاول الفكاك مني ... كأنه لم يكن هـــو الذي يضحك لكل صرخة ضحية تقع صريعة من رصاصـــاته ... آه كم كنت وحشي ...لقد أحسستني تلك الغابة بمدى انحرافي عن الإنسانية والرحمة .

***

اتضح لي جليا الفرق بيني وبين النحات عاشق الحمائم سارق الطباشير الذي عانى من فتات الطباشير مع احتكاك الـسبورة ... وارتعش من بصمات دم الخراف على ميـزان جـزارة أبيـه .. وجهان مختلفان ودنيتان لا رابط بينهما.... ولكـن مـن صـنع المحارب السفاك يمكنه أن يعيد النحات عاشق الحمائم ....

كانت إعادة تلك الأشياء صعبة .... فقد أصبح لي تـاريخ، تؤلمني ذاكرتي على حد سواء، على من مات وهو عدوي، وممن مات وهو صديقي.

***

ليت الزمان عاد أدراجه ....ما كنت سأدخل الحرب ....مـا كنت سأسامر الشهداء .... ما كنت سأترك أحدهم يدخل رصاصة واحدة في بطن بندقيتـه العميـاء .... سأسـرق كـل البـارود ....سأعطل كل البنادق ....

ليت الزمان يعود ... سأرضى أمي وأدللهـا .... سـأداعب أخواتي بحلو الحديث وسأتعلم .... نعم سأتعلم ....فالحمائم التـي في الطباشير هي جمادات ....لن أحررها من جمودها ... ولكـن بالعلم أحرر عقلي ليختار الصواب .

***

وبينما أنا أفرز دنيا المحارب من حياة النحات ..... أعاتـب زماني ونفسي ... اقتحمني جمع غفير من ضباط وجنود وضباط

صف .. دوى أجيج عالي من الرصاص وكأنه استقبال ليَّ وبعدها أحاطوني بأفواه البنادق لم يكن أمامي سوى الاستسلام ولكن الذي استسلم هو النحات وليس المحارب.

***

الجزء التاسع عشر
العود الأحمد

لم أفاجئ بتنفيذ أمر اعتقالي ولكنى كنت أتوقع أن من سيعتقلني هم الطرف الآخر وليست زملائي ......رجعت إلى معسكري ولكنى مأسورا لا قائداً كالسابق .... لقد زج بي في السجن بعد أن رفضت خوض معركة كانت بعد شهر من عودتي .. لقد رفضت حمل السلاح لأنني شبعت من دم الضحايا ومن قطع الجسد الصغيرة .. كرهت صوت الزناد والبارود .. وقررت أن أوقف الحرب حتى إذا كان ذلك إيقاف من جهة شخص واحد فسيكون أنا.

***

ما انتابني وأنا داخل الغابة كأنه وحي تربص بي فمنذ لحظتها أتتني عزيمة قوية لأن أهجر العسكرية وأعود عاشق حمائم .... حتى أنني بدأت اشتم رائحة نتنة في كل من حولي من الجنود .. كانت تلك الرائحة أشبه برائحة الدم المتعفن أو أقرب لرائحة الجثث المتورمة .... كنت أشتم تلك الرائحة حتى في ملابسي ...... كدت أن أفقد عقلي داخل السجن .... صحيح أنني ارتحت لكون علاقتي بمن يفارقوني أصبحت واهية ... ولكن هذا

الحل لا يرضيني أيضا ....لا أرغب في الموت لأي شخص عدو كان أو صديق .

***

عامان مضيا والكثير من المعارك كبيرهـــا وصـــغيرها ... غارات ورد غارات، كان القواد يأتون لأخذ مــشورتي وتكتيكـــي ولكني أرفض بل وأرشحهم برصاص الشتائم والسباب ..... خيل إليهم أني فقدت صوابي ... وخيل لبعضهم أنى متمرد خائن .... وخيل لآخرون أنى جاسوس اعمل لمصلحة أعدائهم .....الكثيـــر من التفسيرات كانت كلها واهية ... يحس بوهنها قائلوهـــا لأنهـــم كرهوا الحرب مثلى فقط ما استطاعوا المجـــاهرة بـــرغبتهم فـــي السلم.

***

كنت وأنا داخل غرفة اعتقالي المظلمة .... أتـــوق برأســـي بحثا عن ثقب ينفذ من خلاله صوتي ....كنت أدرك أنهم متحركون الآن للقتال .... حينها أصرخ بأعلى صوتي لأبطئ مـــن همـــتهم .... ادعوهم للسلم وقد دعوا موتاهم للحرب ....كنت أصرخ حتى تصل كلمات إليهم داخل ساحات القتال .....جمعهم كانوا يسمعونـــي ولا أشك في أنهم كانوا يتفاعلون معي لكنهم صمتوا لأن الأقـــدار هي التي تقودهم فلا ترجعهم .

***

الوطن واحد شماله وجنوبه فلماذا نقاتل .. هل أن احتلنا الجنوب يمكننا أن نطرد الجنوبيين خارج حدود السودان وهم يقطنون في أعرق مدن الشمال حتى أثناء الحرب .... وهل أن أحتل الجنوبيون الشمال سيطردوننا خارج الديار.... أشياء كثيرة أفكر فيها فأجدها تدعم منطق السلام وتحنكه أما التي تدعوا للحرب ويزينها هي أسباب أكثر ضعفاً.

***

لا فرق بين الأسر والحياة اليومية الحرة في المعسكر ..... كنت آكل وأشرب وكأنني سأتوج في القريب العاجل عريسا على ميري ..... وعلى الرغم من ثورتي واشمئزازي من الأوضاع إلا أن تمسكي بالحياة بداء يتزايد وكأنني تعلمت ذلك من أوراق الأشجار المتساقطة اخضرارا ..... حاولت مرارا أن أكتب ... فما أن أمسك القلم حتى تداعى إلى ذكرياتي الحزينة والتي تقول كلها أننى أول من وضع ذاته في الطريق الخطأ..... فتتقهقر كلماتي خوفا من افتضاح نفسي .

***

مكثت عامين في السجن وكنت في تلك الفترة أحارب نفسي لما فعلته طوال ثماني عشر سنة سابقة وقد كنت قبلها أحاسب نفسي أيضاً ولكن الأسباب اختلفت لأن الذي حارب ليس هو حبيس القضبان الآن.

***

الجزء العشرون
الوعد بالرحمة

في ليل طالت سدوله على غير العادة وجدت نفسي أغفو نائما .... وقد اعتدت أن اشهد الليل يقظا متأملا .... بل لن أكذب أن قلت إني لم أنم قط .. ذاك الليل الذي أحسست بطوله .... لقد كان مملا حتى أنني حفرت فيه ما يزيد عن مترين في انحدار سفلي خفيف .... وفجأة راودتني فكرة ليست بجديدة ... قررت حينها الهرب كالعادة.

***

بينما أنا منهمك في الحفر وكأنني أخشى أن تنزلق الفكرة مني ... انهالت على أصوات البنادق فهلل كل السجناء حولي بالفرج حتى وإن كان من عدو .. اقتحم جيش العدو معسكرنا ودكه دكاً دقيقاً ولم يبق سوى السجناء .. لقد كان الضباط والجنود في غفلة ، والسودان يعاني من إضرابات عسكرية في حدوده الشرقية إضافة لدخول شهر رمضان .. استفاد المحاربون من كل ذلك ودكوا المعسكر، ولم يبق سوى السجناء الذين كان أغلبهم من أسرى الجنوب والقليل من الشماليين.... أما أنا فاصطحبوني كسجين جنوبي .

***

كنا في طريقنا إلى اتجاه اجهله كالعادة .....فقط اذكر مـن هاجمونا كانوا خليطا ما بين شماليين وجنوبيين .... وأن الأسرى أيضا هم خليط ما بين شماليين وجنوبيين .... هذا ما جعلني أدرك جدوى إيقاف الحرب .... لأن الجنوبي ما هو إلا شخص يتواجـد الآن في الجنوب وكذا الشمال ... فلا لون، لا رطانة ولا شـلوخ تميز بين شخصين أحدهما شمالي والأخر جنوبي.

***

كنا كأسرى نحس بشيء من الحرية ولو كنـا فـي قبـضة الأعداء.....أفادني موقفي كسجين لذا كان لهم تعامل خاص معـي ربما ذلك للشلوخ التائهة على جبيني .... فبعـد أن اصـطحبوني وسط مزيج من الأغاني والزغاريد بالنصر .... عانق الأسـرى أهلهم ومن يحبون ... فرحتهم كانت واسعة فقد امتلأت عربـاتهم بالمعدات والأسلحة والمؤن، عربات كبيرة وأخرى صغيرة امتلأت جميعها .. كانوا أكثر فرحاً بحصولهم على العديد من الأسرى وقد لاحظت ذلك بدهشة .. لقد كان الجنود والضباط يقبلون الأسـرى بحرارة وهم يبكون في أحضان بعضهم.... فإن كان الفراق صعبا ماذا عن الموت ؟

***

لم أعرف مسيرة كم وبأي اتجاه وصلني إلـى معـسكراتهم لكنني أدهشت وأنا أمشي راجلاً أحسـست بـأني أتـدحرج وأن الأرض تميل بي إلى أسفل وكأنني أمشي على أنفاق مائلة.. لقـد

وصلت إلى مكان القيادة وأنا مغطى العينين .... وسمعت مختلف اللغات واللهجات في طريقي، تذكرت حينها وصول بابور البحـــر التي تعبر النيل من كوستي إلى ملكال.... وتذكرت تدفق الجنوبيين والشماليين ذهاباً وإياباً في ميناء الرنك حتى أنني اشتممت رائحـــة "الكجيك" وفجأة تذكرت ميري وسيقان الطرور..

***

كنت أعرف الكثير من الرطانة وأجيد السمع والتفسير ولكن التحدث بها يصعب علي متمرد .. كان المكان هادئ ولكنه أكثـــر حرارة ولا نسائم فيه .. لم أعرف أن إذا كان الوقـــت صـــباحاً أو مساء .. كنت أجلس على أرض وأحس بخطوات أنـــاس حـــولي .....لقد أحسست أن في تلك المكان حياة .... ومنـــذ أكثـــر مـــن عشرين عاما سمعت صوت امرأة وأطفالا .... سمعت حديث فيه أمل غدا ... سمعت أحدهم يسر لآخرهم هامسا .... سمعت كـــل ذلك وأحسسته بالرغم من أنى مغطى العينين وتستعصي علي فهم عبارات الرطانة .

***

حاولت أتابع باجتهاد ما يدور حولي من حديث .... شـــيء ما في هذا المكان أحسسني باطمئنان نفسي....كنت أتمايل مستمتعا وكآن جسدي يداعب حلما لطيف.... سمعت شيء من طقطقـــات أصابع يد أمي من أصغر إخوتي .... وفجأة هيئ لي أن ميـــري تقف أمامي فتحت عيني جاذباً الكمام عنها.. واندهشت أكثر عندما

أصبح الخيال حقيقة .. صرخت متعجباً "ميري"!؟ أحدهم ضربني بعنف من الخلف مجاوباً على سؤالي .. بعدها فقدت وعيي وكانت ميري آخر شيء فيه.

***

الجزء الحادي والعشرون
شيء من الشهادة

أفقت من وعي بعد شهرين وثلاثة عشر يوماً .... اكتشفت حينها أن ذراعي اليمين من أعلى الكتف قد بُترت ... وأن آخر لكمة لي كانت طلقة نارية ولكن لدهشتي من ظهور ميري لم أحس بها.. تفاجأت بوجودي وأنا في مستشفى صغير وحولي أطباء ومساعدون .. المكان نظيف .. حجرة بها سرير وكرسي وثلاثة دواليب كبيرة.. حجرة صغيرة ولا منافذ لها.. تقلبت بنظري في المكان ثم فيمن حولي ..

***

ترى لماذا أطلقوا على الرصاص ..... كنت أسأل نفسي محاولا العثور على إجابة ولكن دهشتي للقاء ميري أكبر من حصولي على الإجابة ..... لم استمتع كثيرا وأنا أقنع نفسي بلقاء ميري ....ووجدت نفسى اندهش للمرة الثانية عندما رأيت ميري كانت تقف من خارج الحجرة على موازاة الباب وكأنها تستأذنني بالدخول.. نهضت لأهرول شوقاً تجاهها ولكنني ارتميت فجأة صارخاً لأنني أعجز عن النهوض من استلقائي .. فبكيت لعجزي.

***

كانت تلك هي المرة الثانية التي أبكي فيهـا.. صـرخت .. ميري .. ميري عودي ميري .. اختفت ميري وكأنهـا شـبح .. سألت الطبيب أين ذهبت ميري ولكنه رد ساخراً بأنها ليست ميري وأنها القائد العسكري الأول لهذا المعسكر منذ حـوالي عـشرين عاماً.

***

لم أشأ تصديق الطبيب؛ لأني أحفظ عن ميري أشياء لا يمكن نسيانها حتى وإن فقدت الذاكرة .. عشرون عاماً لن تنسيني طفـح خفيف من حمؤ النيل على وجه ميري .. فأنا أحفظ مقيـاس بعـد رمشها عن الآخر أحفظ عمق انكماشات شفتيها .. أحفـظ طـول أسنانها وعرضها .. كل تلك أشياء لا تغيرها عشرين قرناً.

***

وظلت الشجون تملأني ..... كيف تحولت ميري من طيـف رقيق إلى قائد حرب .... هل أصدق ما حدث لميرى من تغييـر ... أم أصدق ادعاء الطبيب بأنها ليست ميري .... ولكن لن يكون محالا أن يتحول الطيف إلى محارب .... فقد تحولـت أنـا مـن شخص لامبالي إلى قائد حرب ..... لن ألومها أن كانت هي ميري ... بل سألوم نفسي إن لم تكن هي لأنني أوهمـت نفـسي بعـدم نسيانها.

***

الجزء الثاني والعشرون

لقد وجدت تعاملاً خاصاً في أسري بعدما نُقلت من المستشفى إلى السجن .. كان سجناً حاني بالنسبة لي وقد وجدت أكثـر مـن عشرات الجنوبيين ومئات الشماليين فيه ولكن كانت لهـم طريقـة خاصة يعاملوني بهـا.. اكتـشفت حينهـا أن ميـري أوصـتهم بي.....وقد قص لي أحد الحراس المقربين مني ، أن ليلة الإغماء كانت الليلة المقرر فيها تصفيتي ولكن ميري تدخلت في آخر ثوان من حياتي المفترض بهم إنهائها .

***

كان ما قاله العسكري جميلا منها .... ولكن أي أن كانـت تلك الحياة الموهبة أن لم تشاركني فراشها لا طعم فيها.... فهـل تنغذني لأطلب تلك بالحياة ؟..... هل تمد يدها منقذة لأكتـشف أن في الإنسان مدى لإنسان آخر يواصل به ومعه مـسيرته ...؟.... ولكنها كعادتها تتركني للصمت ... فأكثر الحلول واقعية أنهـا لا تضمن لي ذاك المدى ..... ولن يضمن أي أحد مـدى لآخـرين يتواصلون به إليه ....فحينما يملأ أحدنا بندقية، كل ما سيقوم بـه هو هدم ذاك الوصل ....فلماذا تتغزني ميري وهى لن تضمن لي أي نوع من أنواع الوصل .

***

صحيح أننى أسير ولكن تلك الفترة كانـــت أجمــل لحظـــات حياتي ....لن يفوقها إلا لحظات تشبث ميري بي حينما كنا نصطاد الطرور ..... لقد عدت للوراء لم ينقصني سوى عـــودة ميـــري لحضنى ... لذا كنت أتوق لدخولها على ... وحتى أننـــى ســـألت نفسى كيف سأقابلها والحجرة ممتلئة بالأسرى ....

***

أخذتنى أحلام ميري بعيدا وكدت أنسى أننى أسير .... كان عدد الأسرى يقل كل شهر بل وما أدهشني أنهم يخرجـــون فـــي الصباح ويعودون في المساء في موكب من الحرس .. اقتربت إلى بعضهم وسألتهم عن سر الخروج وعرفت حينها أنهم يبنون مـــدناً من الحجر تحت الأرض .. فقد لاحظت من داخل المستـــشفى أن الغرف التي هي بطول ثلاثة أمتار لها جدران من الـــداخل فقـــط وليس لها وجود من الخارج بل وأنها تفتح على ممرات صـــغيرة "لقمت" بالحجر أيضاً من داخلها .. كانت أشبه بمدائن القدماء ولكن الحياة تدب فيها بنشاط أكبر.

***

في أثناء أسري دخل علي واحد تبدو في ملامحه أنه شمالي .. وقد صدق حدثنى حينما حدثني العربية بطلاقة .. لـــم أنـــدهش

لوجود شمالي في صفوف الجنوبيين لأنه أيــضاً يوجــد جنــوبي يخلص شمالياً .. لقد طلــب منــي الــشمالي أن أدرس صــغار الجنوبيين القليل والعريض من العربية بدلا عنه لأنه سيذهب إلـــى أمريكا في أمور تخص الوطن جميعه، فوافقت.

***

الجزء الثالث والعشرون
هل من حصاد!؟

خرجت من الأسر لأسر آخر أقل قيوداً .. كان الصغار يأتوني لأدرسهم ثم يخرجون وبعدها يأتي الجنود ليرجعوني إلى أسري .. راودتني فكرة أن أعلم الصغار ألفاظ يرفضون بها الحرب ويحبون السلام ... فكنت أقص لهم بالعربية حكاية جمال السودان الخرافي.. وأشد انتباههم لرفض التغيرات التي تشتعل من أجل أن يموت الجميع.

***

كنت انداح في شرحي ، غير مبالى بمحدودية فهم العربية لديهم ، ولكنني ألحظ انشدادهم لما أقوله حتى وإن لم يعوا رسالتي بعد ... بدأت دروسي بزمن ساعة في اليوم .. فاستمر التزايد حتى ثلاث ساعات صباحاً وأخرى مساء .. كنت في أغلب وقتي أداعب خدود الصغار وألعب معهم قفزاً وهرولة.. كانوا أبرياء مثل سابق عهدي ! ولكنهم جاهزون للتحول إلى كتل من البارود.

مكثت على هذا المنوال لحوالي عامين ونصف .. أصبح لدي العديد من الأولاد أبناء وبنات يهادوني بالأكل والملابس وعقود "السكسك" .... أحببتهم جميعاً وأصبحت أدرسهم الرياضيات

والإنجليزي والمسيحية أيضاً.. استكنت لحياتهم وأحببتها وبـدأت أراقب بذور أفكاري وهي تكاد أن تثمر.

***

كنت أتعامل مع كل طفل منهم بإحساس أبيه .... لأول مرة في الحياة أدرك حاجتى لابن يشبهني أو لا يشبهني في الملامـح .... ابن أحفظ عنه تفاصيل حياته وفقا للثواني والدقائق فيها .... كنت أسحب نفسى لأجلسها جانب وأتالم ولكنني أجد عزائي فـي هؤلاء الصغار .... ربما سيكونوا أبنـائي ... أنـا الآن اقتـرب عمري من الخمسة وأربعين عاما .... مشاعر الأبوة لدى كانـت مشلولة إلى أن ظهر هؤلاء .

***

ولكن أحيانا أدقق في ملامح الوجوه لأكتشف ابن ميري .... صعب على كثيرا في بادئ الأمر أن اعرف هل لميرى ابن هنـا .... ولكن بعد رحلة بحث شاقة عرفت حقيقة مؤلمة أن ميري لـم تتزوج.

***

كان على أن أفرح حينها .... ولكننى لم استطع ، أن كانــت ميري قد تزوجت لقطعت على طريق الوصول إليها .... وفــرت على ما سأعيشه من أحلام أو أوهام .... وانتنى بدليل هو إن كنت تشعر بأن أحد ما هو حياتك، فأنت ليست حياته .... ولكن كل هذا لم يحدث فأكملت ما بقي من نضال باتجاه نارين ....نــار الحــب ونار القتال.

***

الجزء الرابع والعشرون
مجيء العاصفة

أعجبتني الرتابة التي تكتنف حياتي .. أخــرج مبكــراً مــن السجن للمدرسة ثم أعود للسجن ثم أخرج للمدرسة في دندنة أشبه برقص "الطبل" ... كنت سعيداً للغاية بالرغم من أنني لــم أرى ميري منذ حوالي عامين ولم يحدثني عنها أحد كما أهوى ... لقــد كانوا يشوهون لي صورتها التي كانت كملاك مازال عليه بريــق السماء .... كنت أسمعهم لأني أعشق أقاصيصها ... وأئن حينمــا يسردون جبروتها العسكري وكأنني لا أجد لها مبــرر حتــى أن وجدت ذلك لنفسي.

***

وذات يوم وأنا عائد من المدرسة وبجانبي عسكري أحــدهم عن اليمين وآخر عن الشمال كنت حينها أتمايل طرباً وأنا "أصفر" بهدوء مردداً لحناً جنوبياً .. لقد لاحظت تفاعل العسكريين معــي حتى أنهم هزوا جسدهم غير مبالين .. ثم ضحكوا معــي وبــدأوا (يغنوا) ذات اللحن بصوت عالي .. استمر الغناء حتى أدخلــوني سجني وانصرفوا.

***

بدأت أتامل ذلك اليوم وقررت أن أكتب مذكراتي عنه ....لقد كان يوم فوق العادة ...قابلت أسرة أحد تلاميذي ... لقد رفض أهله ذهابه للمدرسة لخوفهم مني ...كان صعبا على أن أدخل بيوت أحدهم وأنا أسير .... لكنني كنت أبدى سلوك طيب لأكسر هيكل السلوك التعسفي ضدي كأسير ....كنت أهتم بتلاميذي كأنه اهتمامي أبي بي .... فأذكر جيدا عندما كانت بعض المنظمات تجلب وجبات غذائية وأدوات نظافة وأدوية لأنسى طفلا دارسا كان أم عازفا بالرغم أن المعونة كانت للدارسين من الأطفال فقط .... كنت أهربها إليهم عن طريق أصدقائي حراسي .

***

فى اليوم ذاته وقبل عودتي لمكان احتجازي اصطحبني العسكري المرافق إلى منزل الطفل .... حضرت الكثير في مذكرة دفاعي من عبارات ... ترجمتها برطانة الدينكا ثم فكرت سردها بعربي جوبا ... أو بالعربية الجنوبية ... وكنت على طول الطريق أنمق كلماتي لأقنع بها أهل الطفل ولكن حمار الشيخ وقف عند العقبة.

***

لقد وجدت تلك العائلة أبسط ما يكون .... وجدتهم لا يعرفون عنى حسنا أو سيئ ... ولكنهم يعرفون ما لا أحد يعرفه .... لقد تنبؤ بالحرب .... جمعوا جوالات الذرة ليدفنوها في المطمورة

وروحها باقية حولهم .... جمعوا أبناءهم من ما سموه مدارس .... وجمعوا الآخرين السائحون في الغابات وحواف الأنهار .... جمعوهم ليدخلوا جحورهم .... كان صعبا على إقناعهم لان فكرتهم وتكتيكيهم كان ثاقبا وعميق ... قادرتهم وأنا اضحك في خاطري ، مال هؤلاء والتنبؤات !!

***

دخلت المعسكر وفى أذني عبارات احتجاجهم .... في مخيلتي ليلة أسرى ... وعلى خاطري المجروح ميري وبندقيتها ..... كنت أتقلب في فراشي دون ملل .... كانت الأشياء المرة في هذا المكان تساوى حلوها ... هذا عدل غير مسبوق بالنسبة لي .....وبعد دقائق قليلة سمعت دوي رصاص لم اسمعه من قبل ... لم يأخذني شك في أنهم الجنود الشماليين وأول ما فكرت بهم صغاري وثماري ..

***

كسرت باب السجن بمعاناة بعد أن لاحظت خلو المكان تماماً من الحراس.. هرولت بلهفة تجاه المدرسة علني أجد الصغار ما زالوا ... هرولت وكأنني أهرول لأنقذ أمي وأخواتي وأنا في مسيرتي من الحقول إلى مدينة الرنك.. هرولت ولم أحس بتخبطي وارتطامي بأشياء لم أعرف حقيقتها.. كنت أصرخ بالعربية وأحياناً بالرطانة كنت أردد احموا الأطفال الأطفال لا .. الأطفال لا .. الأطفال الأطفال.

الجزء الخامس والعشرون
الحرب دول

دكوا الشماليين المعسكر كما دكا الجنوبيين معسكرهم من قبل ولم يبق سوى الأسرى شماليين وجنوبيين..... كرهت في هذه اللحظة الناس أجمعهم شمالهم وجنوبهم وكرهت الوطن أيضاً.... أما يكفيهم ما وصلنا إليه من آلام .... علام نعاقب بعضنا رميا بالرصاص ... وإن متنا ومات أطفالنا لمن ستبقى تلك الأرض الخالية المشؤمة ؟؟

***

دخل الجيش القرية كالطيف ..... خذوا من الأسرى ما يكفيهم .... كأنها لعبة بسيطة .... لا تترك سوى المتعة .... سُحبنا بالأمس كاسري للجنوب ... ونسحب الآن كأسرى للشمال .... ماهذا الوباء الذى لا ينتهي .... كان كل جزء مني ينزف ودون جرح .... أحس أن كل الناس أمامى أعدائى حتى ميري ...لم أتزوق وجودها فهي تركب معي في عربة واحدة ... وعلى بعد ثلاثة أمتار مني لأن آلامي أكبر من أن تبددها ميري حتى وأن كانت عشق عمري البكر.... ولم اشعر حتى بزملائي الشماليين وهم يحتفلون بإطلاق سراحي.

***

قطعنا الطريق من اتجاه سيئ لأخر أسوأ .... لا مكان لحياة دون سلاح .... أنا أريدها ، أريدها وان كانت حياة فقر وأمية ... حياة مرض ومشاعر قاسية .... أي تكون فلن تكون أسـوأ مـن الحرب.... كنت كأنني فاقد الوعي وعندما استيقظ أحـس بأحـد الجنود يرحب بي ويبتهج .... ثم أرجع لأغفو عن وعيي وأصحو على ثلة أخرى تحمدني بسلامي..

***

جئت المعسكر وموقفي كالسابق ... لن امسك بندقية وسأبقي أول من يوقف الحرب إن كان على مستوى ذاتي .... مرت أيـام وصار الوضع على ما هو عليه وقد خدمني ذلك في أن أسافر إلى الخرطوم طالباً استقالتي .. وجدت الكثيـر مـن الاحتـرام فـي المقابلات الرسمية التي تمت بيني وبين الجهة المسئولة والكثير من الامتنان أيضاً.

لقد كانوا يرون فيّ المحارب والمجاهد صـاحب الواجـب والوازع الديني وكنت أرى أنا فـي نفـسي الـسفاح قاتـل أمـه وأخواته... وقاتل مئات لم يعرف لهم اسم ولا عنوان .... تحملت الكثير من الدعوات والجلسات مع قواد ....كانت تميتني ويميتنـي افتخارهم بى كبطل ....لكنى تحملت ذلك كله من أجل أن تـسير أموري وفق الإجراءات القانونية والمطلوبة لديهم.

***

وأخيراً تسلمت استقالتي ولكني اعتذرت عن كل استحقاقاتي المالية .. لأنني لم أكن أملك من يحتاج إليها .. لا أسرة لدي في الحاضر ولا في المستقبل.... فقط لدى حقيقة هي تاريخي .... تاريخي الذي سأكتبه سالبا فيه ذاتي ما يستر عورتي ... فتلك العورة على أن أغطيها كما فعل آدم وحواء .... فليس كل ما يُفعل في الحرب يقال ... ليست كل ما يقال في الحرب يُسمع .... وليس كل ما يسمع عن الحرب يدرك .... ولكنني كيفما أستر ذاتي تكشفني إرادة الله ... لان السنة الحرب لا مأوى لها ولا ستار فهي حينما تشتعل تجعل الجميع في العراء حي كان أو ميتا.

***

الجزء السادس والعشرون
العودة

بعد أن تسلمت استقالتي بدأت أجمع معلومات عن وطن أبي ووطن أمي .. فأمي من وسط السودان وأبي من أقصى الغرب .. استمر بي الحال أكثر من شهر كنت أسأل الناس في المطاعم ومحطات المواصلات عن قرى قد أكون مخطئاً في تسميتها فأجد من يرد سلباً وآخر جواره يرد إيجاباً.

ولكن في نهاية أمري جمعت الطفيف من المعلومات ليجعل مني سائح في وسط السودان وغربه ..

***

وفي صباح يوم أشبه بيوم اصطحابي ميري إلى النيل جمعت كل أوراقي فلم أكن أملك (حقيبة) فقط أملك مجموعة أوراق وصور جميعها لأموات أو مقتولين .. وقررت الابتعاد هروباً.. وتسللت كالعادة حتى لا يحسنني أحد.... على الرغم أنني ممن جازهم الله ليبقوا وحداء..... جاءتني فكرة أن يكون اعتذاري أُزرى الثقيل ...فأجوب به كل مدن وقرى السودان ... أقدمه إلى أسر وضحيا الحرب.. ولكنني أحسست بأن ذلك من المحال أأعتذر لسكان مليون ميل ..؟؟ .. هذا غير ممكن.. ولكن مذكراتي ستبقى فلتحملها آباط الهواء ... وليقرأها من يقرأ.

***

إنها مذكراتي بالرغم من أنني سكت فيها عن أشياء كثـرُ.. فهي تستحق التستر عنها.. فالحرب ليس إطلاق نيران فحسب .... قد يتقيد المحارب أحيانا بالأخلاق والدين .. ولكن عنـد جريـان شلالات الدماء تنفلت الأخلاق ، وتغفو كل المحاذير ، وتتبرجِ لدى الكل الحاجة للتمرد على الموروث والمكتسب؛ لأن الحيـاة تُظلـم وتضيق وينسى الكثير "أن لا ملجأ من الله إلا إليه" .. وترتكب من الجرائم ما يحس فاعلها الرضاء عنها ويمكنه أن يبررها.

***

إذن هذه هي مذكراتي وتلك هي الحقيقة.. هل أدمج الحقيقـة فيها .. وجاءتني فكرة بأن أعيد صـياغة مـذكراتي حتـى وأن لامستها المنطقية في وجوب المسكوت عنه.

وأقدم لأسر الضحايا اعتذاري وحلمت بأن أجلس على ركبتي وتخاطب دموعي كل يتـيم وأرملـة وأم وأقـول.... هـا هـو اعتذاري... أنتم من يهبني السماح الذي سأحرم منه نفـسي .... أنتم من يكون لعفوه وسماحه قيمه لأن ما فقده أقيم .... أنتم مـن سيدرك أن داخلي الحرب كانوا لسبب أو آخر مكـرهين ... أنـا احدهم .. لذا سأصرخ معتذرا "لم تكن الحرب خياري".

***

النهاية
من المؤلف

بعد فترة لم يستطع أحد معرفتها ... مات النحــات عاشــق الحمائم أو القاتل صانع شلالات الدماء أو المرهف الساجد من أجل السماح .. مات أو قتل..

وجدوه ملقياً على جانب مجرى مياه بأقصى ولايات السودان الشرقية ... وجدوا مذكراته كأنها لم تمر عليها نسمة لتحرك حزمة الورق، قلمه على أعلى الورق كأنه أراد الاسترخاء ليعود ويكتب.

أثبت الطب الشرعي أنه مات مسموماً .. وظل في المشرحة شهرين... لم يتعرف عليه أحد ولكن أصدقاء دربه ما خفي عليهم .. أما الأهل فلم يحظ بتعرفهم عليه ... لأنه من أم مــن أقــصى الغرب وأب من أقصى الشمال وعاش في أقصى الجنوب ومـــات بأقصى الشرق فكل هؤلاء هم أهله ولكنهم لم يتعرفوا عليه.

تمت بحمد الله

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

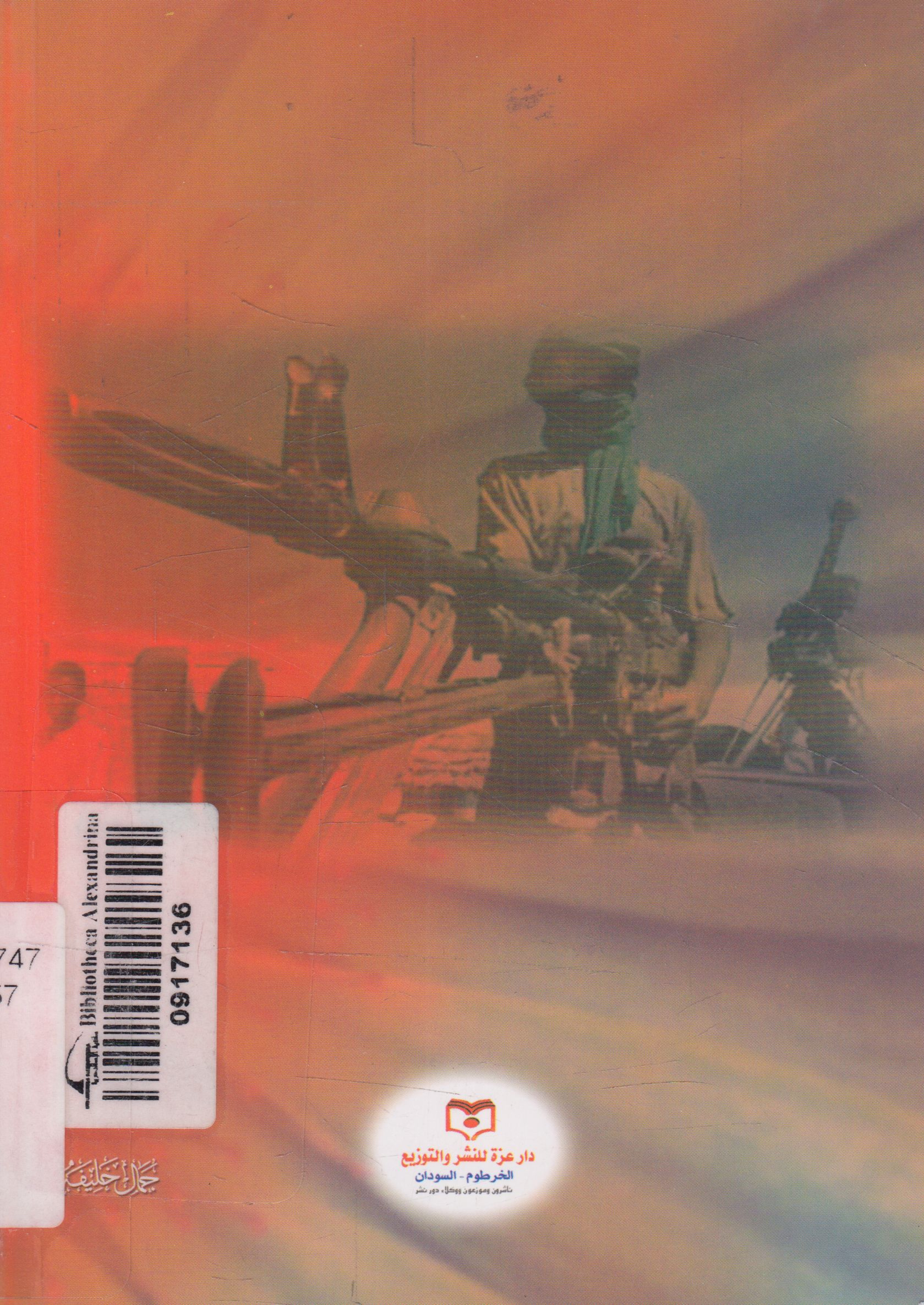
دار عزة للنشر والتوزيع

الخرطوم - السودان



دار عزة للنشر والتوزيع

الخرطوم - السودان


دار عزة للنشر والتوزيع
الخرطوم - السودان
ناشرون وموزعون ووكلاء دور نشر